المحاضرة الثالثة: التفسير البيولوجي للجريمة

1-تفسير المدرسة الوضعية لومبروزو (1835-1909)

وُلد سيزار لومبروزو Cesare Lombroso في فيرونا بإيطاليا في 6 نوفمبر 1835، وفي عام 1852 التحق بكلية الطب بجامعة بافيا، حيث تخرج عام 1858، وبعد تخرجه عمل أستاذا للطب الشرعي والعقلي بجامعتي بافيا Pavia و تورينو Torino الإيطاليتين ، كما كان طبيباً للأمراض العقلية في سجون إيطاليا، وقد أتاح له عمله عدة سنوات في الجيش الإيطالي ملاحظة العديد من النماذج المختلفة من الجنود والقادة العسكريين، وقد لاحظ أن بعضهم يتصف بسمات يغلب عليها طابع القسوة والتمرد على النظام، بينما يتسم البعض الآخر منهم بالطاعة والانضباط. كما أن الجنود الأشرار كان لديهم شذوذاً عضوياً وكانت لديهم وشمات ورسوم قبيحة، ليست موجود لدى أقرانهم من بقية العسكريين، ومن خلال عمله في السجون وفي الجيش، قد قام بدراسته على الأفراد العسكريين في السجن العسكري والذين اعتبرهم مرجع له كأُناس أصحاء، وقد قام كذلك بدراسة السجناء في نفس السجون في الفترة بين عام 1864- 1878م.

وخلال سنوات ابحاثه أجرى فحوصات لأكثر من 343 جمجمة لمجرمين موتى، وحوالى 600 مجرم على قيد الحياة، وخلصت أبحاثه وفحوصاته إلى أن المجرم إنسان بدائي يتميز بملامح خاصة توفرت فيه عن طريق الوراثة، وأنه مطبوع على الإجرام، والذى أكد له تلك الاستنتاجات أنه عندما قام بتشريح جثث المجرمين، وجد فراغا في مؤخرة الجبهة يشبه الذى يوجد عند القردة، وكانت من ضمن تلك الجثث التي قام لومبروزو بتشريحها هي جثة "Villella"حيث شرح لومبروزو جثته واشار إلى وجود تجويف في مؤخرة الجمجمة مثل التجويف الذي يوجد في جماجم القردة وبعض الحيوانات المتوحشة، فهذا التجويف هو مثل التجاويف التي توجد عند يعض الثديات الدنيا، وكذلك شد انتباهه الشذوذ في تكوين

الأسنان وشكل الجبهة وحجم الجمجمة، يشبه الحال الذي كان عليه حال الإنسان الأول وتأكدت وجهة نظره هذه بتطبيقه للمقاييس الأنثروبولوجية وبالفحص العضوي لعدد 3839

من المجرمين الأحياء.

وقد سجل لومبروزو أبحاثه تلك في كتابه الموسوم ب" الأنسان المجرم" (L'homme criminel) ، الذي ظهرت طبعته الأولى عام 1876 ثم تلته إصدارات أخرى(ظهرت الطبعة الثانية في عام 1878 والتي تعمق فيها لدراسة معانى تلك الأوشام على أجساد المجرمين، حيث تلاحظ له أن السجناء على أجسادهم وشوما تحمل دلالات غير أخلاقية بشكل كبير جدًا عن باقي من يقومون بوشم تلك الأوشام من المواطنين العاديين، وفى هذه الطبعة من النظرية درس لومبروزو أيضا لهجة المجرمين والانتحار والدعارة بينهم، وحلل من خلالها ظاهرة الجريمة على أساس العمر والجنس والمناخ والغذاء والفقر.

وفى عام 1884 ظهرت الطبعة الثالثة وفيها تطرق إلى الجنون الأخلاقي وهى أن المجرم الرجعى (الهمجي، البدائي) مصاب بالجنون الأخلاقي، والذى يعود به إلى أصله البدائي مجردا المجرم من الشعور الأخلاقي.

اما الطبعة الرابعة تطرق الى ما يسمى المجرم السياسي، والتي ذكر فيها أنه يصعب إدراج المجرم السياسي يختلف جسمانيا عن الشخص العادي، وهو ما يدفعه لارتكاب السلوك الإجرامي، وفسر ما يسمى المجرم السياسي بأنه من الناحية القانونية فقط وليس من الناحية الأخلاقية والاجتماعية، ويصفه بانه شخص شهد التطور الإنساني، ولكنه يمارس العصيان

ولقيت هذه النسخة من النظرية عدة انتقادات لاذعة تعرض لها العالم الإيطالي الذى كان يحاول لتأسيس علم للقضاء على الجريمة، ومعرفة المجرمين من شكلهم.

وجاءت النسخة الخامس لنظرياته في عام 1897، والذى كان عبارة عن طبعة من أربعة مجلدات واحدة منها تتضمن الكثير الإيضاحات، وفيها درس السمات الإجرامية بالتفصيل وفصل صفات أنواع مختلفة من المجرمين مبنية على حسب اختلاف خصائصهم عن الشخص الطبيعي) ثم تبعه بمؤلف آخر في عام 1901 الموسوم ب "الجريمة أسبابها وعلاجها" واختتمها بمؤلف عن المرأة المجرمة والدعارة في عام 1906.

وتقوم نظرية لومبروزو على أساس أن هناك أشخاصاً يتميزون بخصائص جسدية وملامح

عضوية خاصة وسمات نفسية معينة، وأن هؤلاء الأشخاص ينقادون إلى الجريمة بتأثير العوامل الوراثية ويندفعون إلى الإجرام بحكم تكوينهم البيولوجي ، اندفاعاً حتمياً، ولا علاج لهم، فلذلك يجب استئصالهم من المجتمع، وهذه الفكرة مردها الى الفكر السائد في تلك الفترة و تأثر لومبروزو بأفكار داروين عن التطور والارتقاء التي عرضها في كتابه الموسوم ب" أصل الأنواع" (1859)، والذي يؤكد فيه أن الإنسان هو استمرار لسلفه الحيواني ، أو أن الإنسان هو أخر حلقة من حلقات تطور الخلية الحية الأولى.

ولقد توصلت نتائج ابحاثه الى مجموعة من الصفات (21 صفة) تشبه صفات الحيوانات البدائية، والتي تعود للإنسان البدائي، وقال بأن توفر خمس صفات أو أكثر من هذه السمات الجسدية يجعل الفرد خاضعًا للنمط الإجرامي التام، وإذا توفر لديه ثلاث صفات يكون من النمط الإجرامي الناقص، وإذا قلت هذه الصفات عن ثلاث فليس من الضروري اعتباره مجرما، وهذه الصفات لا تكون سببا في الجريمة بقدر ماتعني ارتداد صاحبها إلى النمط المتوحش البدائي.

وتلك الصفات التي وصل إليها العالم عددها 21 صفة وهى:

- طول أو قصر غير اعتيادي
- رأس صغير ووجه كبير
- جبهة صغيرة ومنحدرة
- خط شعر متراجع
- بثور في الجبهة والوجه
- وجه وعر أو عميق التجاويف
- آذان كبيرة ناتئة
- ضربات على الرأس، وبالأخص فى المنطقة المهلكة الواقعة فوق الأذن اليسرى
- ضربات فى مؤخرة الرأس وحول الأذن

- عظام جبهة عالية
- حواجب غزيرة تميل للالتقاء فوق الأنف
- محاجر واسعة وعيون غائرة
- أنف شبيه بالمنقار، أو أنف مسطح
- خط فك حاد
- شفاه ممتلئة، مع كون الشفة العليا أنحف
- أسنان قاطعة كبيرة، وأسنان غير اعتيادية
- ذقن صغير أو نحيف
- كتاف منحدرة مع صدر واسع
- أذرع طويلة
- أصابع مستدقة أو فطسة
- وشم على الجسد.

وعلى ضوء هذه الصفات وتواجدها لدى الشخص المجرم صنف المجرمين الى الأنواع التالية:

1-1المجرم بالميلاد (الفطرة):

ويتميز هذا الصنف من المجرمين بتواجد صفات ترتد إلى الأزمنة الأولى من مراحل تطور الحياة حيث كان يتميز بها الانسان والحيوان البدائي وتختلف عن الملامح الطبيعية للإنسان العادي في العصر الحديث (عصر لومبروزو)، وقد عدد لومبروزو هذه الخصائص واعتبر أن من يتوافر فيه خمسة صفات على الأقل منها فإنَّه

يُعتبر مجرماً بالميلاد، وأهم ما يميز هذا المجرم أنَّ ارتكابه الجريمة ينشأ من دافع العوامل البيولوجية من دون ما حاجة إلى أيَّة آثارة خارجية أو بيئية تساعد في إتمام تلك الجريمة.

1-2المجرم المجنون :

وتضم هذه الفئة كل شخص مصاب بنقص أو ضعف في قواه العقلية يؤدي إلى اختلال وظائفها مما يفقده ملكة التمييز بين الشر والخير ويجعله على درجة من الخطر تقتضي إما ايداعه في احدى المصحات لعلاجه من مرضه أو ابعاده عن المجتمع في حالة استحالة هذا العلاج، وقد قسم لومبروزو المجرمين المصابين بأمراض عقلية إلى ثلاثة اقسام هم : المجرم الصرعي، والمجرم السيكوباتي، والمجرم المجنون، مع الاهتمام بحالة المجرم الاخير لما يرتبه الجنون في المجتمع من آثار أخلاقية واجتماعية تنشأ من ارتكاب جرائم يجزع لها الرأي العام، حيث يكون لدى المجرمين المجانين هوس ببعض الجرائم بالأخص فمثلا يكون لدى بعضهم هوس لارتكاب الحرائق العمدية وهوس بارتكاب القتل العمد تؤدي لارتكاب تلك الجرائم بشكل متكرر.

وقد لاحظ لومبروزو أن لكل شذوذ عقلي مساهمته الخاصة في الإجرام خاصة في نوع معين من الجريمة.

-فالشخص الذي يتسم بالغباء عادة ما يرتكب جرائم مثل الاعتداءات والقتل والاغتصاب والحرق العمد لمجرد استمتاعه لرؤية النيران.

-والأشخاص الذين يتسمون بالبلاهة أو ضعف القدرات العقلية يستسلمون بسهولة لدوافعهم الأولى أو اقتراحات الآخرين، فبالتالي يكونوا شركاء في الجريمة.

وعادة ما ينجرف الأشخاص المكتئبين وراء حزنهم الكبير أو بتأثير الهلوسة للانتحار، وكذلك من الممكن أن يقوم هذا الشخص بالقتل فقط كنوع من أنواع الانتقام وفي بعض الأحيان يقتل أطفاله حتى لا يلحقهم نفس مصيره.

1-3المجرم بالعادة :

وهو نمط من المجرمين يولد من دون أن تتوافر لديه علامات الارتداد أو صفات وخصائص المجرم المجنون أو بالميلاد، إلا أنه يندفع إلى ارتكاب الجريمة تحت تأثير ظروف بيئية واجتماعية معينة، ضعف خلقي أو اختلاطه بمحترفي الإجرام منذ الصغر، فإذا صادف ظروفاً اجتماعية سيئة كالبطالة، أو إدمان الخمور، فإنَّه يعتاد على ارتكاب الجرائم، وهذا الصنف من المجرمين يعتبر مصدراً مستمراً للإجرام، بسبب طبيعتهم النفسية المستعدة دوماً لارتكاب المزيد من الجرائم، فهو مجرم بالاكتساب وليس بالميلاد. ويغلب أن تكون جرائمه بسيطة من نوع جرائم الاعتداء على الأموال، وكثيراً ما ينجح السجن في تهذيبه وتقويمه ويدفعه إلى الإقلاع عنها.

1-4المجرم بالصدفة:

وهو شخص لا يتوافر فيه الاستعداد الإجرامي وليس لديه صفات المجرم بالميلاد، ولكنه غالباً ما يرتكب الجريمة تحت ضغط عدد من المؤثرات الخارجية الطارئة التي تؤثر في قدرته على ضبط النفس كإدمان الكحوليات، أو الحاجة الملحة، أو حب التقليد وحب الظهور، أو تحت ضغط الإغراء الشديد. وكثيراً ما يرتكب هذا النمط من المجرمين طائفة الجرائم الشكلية المحضة التي يعتبرها القانون كذلك وإن تجرد سلوك الفاعل من الخطورة الإجرامية، وسرعان ما يقلع المجرم من هذا الصنف عن إجرامه شريطة ألا يتعرض لعقوبة قاسية قد تفسده وتصنع منه مجرماً بالعادة بعبارة أخرى إنَّه من الاصل لا يوجد لديه أساس ميل للإجرام.

1-5المجرم بالعاطفة:

يتصف المجرم بالعاطفة بحدة المزاج وبالحساسية المفرطة وسرعة الانفعال وجموح العاطفة، فهو يختلف تماماً هذا النوع عن زميله المجرم بالفطرة أو بالولادة، حيث يتميز بمجموعة من الصفات النبيلة، يندفع إلى القيام بالجريمة تحت تأثير عاطفته المرهفة والمتأرجحة والتي تتأثر بأسباب متعددة اهمها الغيرة والحسد والحماس والاندفاع

والشذوذ عن الشرف والاخلاق والحب، ويمكن لهذا الصنف العاطفي أن يرتكب جريمة القتل ضد شخص قام بالإساءة إلى أسرته أو شخص خان ثقته ويرى البعض أنَّه يمكن أن يندرج تحت مجموعة المجرم المصاب بالهيستريا، و غالبا ما تكون جرائمه من نوع الجرائم السياسية وجرائم الاعتداء على الأشخاص، وسرعان ما يندم عقب ارتكاب جريمته ، لذا غالباً ما يسارع إلى تعويض الضرر الناتج عن الجريمة، أو تغيير محل إقامته كي يبتعد عن مكان الجريمة أو الاتصال بالمجني عليه، وقد يقدم على الانتحار عقب جريمته.

يعود الفضل للومبروزو في توجيه الاهتمام إلى شخص المجرم كأساس للظاهرة الإجرامية خاصة من زاوية تكوينه العضوي، بعد أن كان الاهتمام منصباً على الجريمة كفعل مادي أصم. كذلك الدفع بالدراسات الإجرامية نحو إتباع المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة، ودوره أيضاً في إنشاء وتطور علم الأنثروبولوجيا (علم طبائع الإنسان)، ووضعه لأول تصنيف علمي للمجرمين قائم على الخصائص البيولوجية والعضوية والنفسية، محاولاً بيان الرابطة بين تلك الخصائص وبين السلوك الإجرامي.

غير انها نالت نظرية لومبروزو النقد أيضا من بينها نجد قصور في المنهج ، والبعض الأخر لوجود قصور موضوعي في نظريته، يعود إلى محاولة تعميمه للنتائج التي توصل إليها ، من دراسة بعض الحالات الفردية ، على بقية المجرمين، حيث لم يراع أن تكون تلك العينة ممثلة تمثيلاً جيداً، مما يجعل النتائج التي توصل إليها محل شك وتفتقد للموضوعية وللمنهج العلمي السليم.

2- المحددات التكوينية نمط بنية الجسم

2-1 نظرية إيرنست كريتشمر Ernest Kretschmer (1888-1964)

هو طبيب ألماني, وضع أسس ما يعرف ب " التنميط البيولوجي " القائم على إيجاد علاقة وارتباط بين الشكل الفيزيقي للجسم " النمط البيولوجي" وطبع الإنسان .التنميط البيولوجي هو الدراسة العلمية للعلاقة الممكنة بين بنية الجسم والسلوك النفسي للشخص،

لقد قام كريتشمر بقياس الأبعاد الجسمية للمرضى العقليين وتوصل الى ان التكوينات الجسمية للناس تنحصر في أربعة أنماط، هي:

-النمط الهزلي أو النحيل(الطويل والرفيع)

-النمط البدين أو السمين(الممتلئ)

-النمط الرياضي(العضلي القوي)

-النمط المختلط(غير المتناسق)

كما وجد أن لكل نمط من هذه الأنماط صفاته النفسية التي تميزه عن الأنماط الأخرى.

فالنحيل يكون عرضة لمرض الفصام. والبدين غالباً ما يصاب بالذهان الهوسي- الاكتئابي.

وقد عرض كريتشمر آراءه عام 1925 في كتاب تحت اسم "الجسم والمزاج PHYSIQUE AND CHARACTER".

صنف كريتشمر الأشخاص إلى 4 أنماط كما ذكر سبقا هي :

-النمط النحيف :يكون بأطراف طويلة وجسم نحيف وله طبع "فصامي المزاج" بارد منطو ليس اجتماعي ويظهر أحيانا مفرط الحساسية وأحيانا عديم الإحساس .

-النمط البدين والقصير : يمتاز بجسم ورأس عريضين وأطراف قصيرة ويعرف أصحابه بالمزاج الدوري فهم متفتحون، اجتماعيون ومتكيفون بسهولة مع الأشخاص و الأوساط .

-النمط الرياضي : يمتاز الأفراد بعضلات قوية ومزاجهم لزج ثقيل ولكن في نفس الوقت انفجاري أي أن هناك استعداد لنوبات حركية وانفعالية .

-النمط عسير النمو :يعاني الأفراد من الاضطرابات في الغدد الصماء وفي النمو.

-1النمط الجسمي الواهن أو الضعيف.

-2النمط الجسمي الرياضي أو العضلي.

-3النمط البدين الممتلئ.

-4النمط الشاذ.

كانت هذه الأنماط الرئيسية الأربعة عند كريتشمر، وبعد فحص 400 من المرضى النفسيين توصل كريتشمر إلى علاقة بين الجسم والاضطرابات النفسية، أن النمط البدين يتميز أكثر ما يتميز بالصفات التشخيصية المرتبطة بالاكتئاب والهوس، أو الهوس الاكتئابي الدوري أما النمطان الآخران فأكثر ما يتميزان به الصفات الفصامية (وخاصة اضطرابات التفكير) ويتم تلخيص هذه النتيجة في العادة بجدول يوضح العلاقة بين الأنماط وبين الأمراض بنسب مئوية متقاربة.

ولقد ربط كريتشمر بين النمط الجسدي والجريمة، فتوصل إلى:

1) ينقسم المجرمون إلى نفس الأنماط الأربعة سالفة الذكر، إلا أن نسبة الإجرام تختلف من صنف لآخر. كانت النسب كالآتي: الضعيف (40-50%)، الرياضي (5-10%)، الممتلئ (20%)، المختلط (3%).

2) يتميز الممتلئون بالميل نحو الجريمة كلما تخطوا سن (40-50) سنة، ويقلعون عنها بشكل أسرع من غيرهم. أما الضعاف يرتكبون الجريمة في سن متقدمة.

3) أنواع الجرائم بحسب النمط:

-الضعاف: جرائم السرقة، والنصب، والاحتيال.

- الرياضيون : جرائم العنف، والجنس.

- الممتلئون : جرائم التزييف، والتزوير.

-المختلط: الجرائم الجنسية.

2-2 نظرية وليام شيلدون:

هو عالم نفس أمريكي قام بتقسيم وتصنيف الشخصيات حسب السمات الجسدية للفرد، وقد أسس نظريته على هذا الأساس، و توصل الى وجود علاقة بين الصفات الجسدية وصفات الشخص فأصحاب الصفات الجسدية المتشابهة غالبا ما يكونوا

متشابهين في شخصياتهم، كما أن سمات وشخصية الفرد ومزاجه جميعهم مرتبطين بشكله الخارجي وأبعاد جسده.

فنظريته تقوم على أساس أن طبيعة الجسم، هي التي تحدد طبيعة الفرد الانفعالية وتنعكس على سلوكه، وذلك يشكل شخصيته.

وقد صنف وقسم شيلدون صفات جسم الإنسان إلى ثلاثة أنماط رئيسية ترتبط بثلاثة أطباع شخصية متميزة وهذه الأنواع والجدول التالي يوضح ذلك:

جدول : أنماط الجسم و الشخصية عند شيلدون

إطار الشخصية	نظرية وليام شيلدون
بناء الشخصية	حصرها في 03 أنماط: **1- النمط البطني**: يتميز أصحابه بالسمنة،أجسام مستديرة و عضلات وعظام رخوة. **2- النمط العضلي**: يتميز هذا النمط بقوة العضلات، مقاوم للإصابات وجسم طويل كالرياضيين. **3- النمط النحيل**: و يتميز بالحافة، الخفة و الطول.
ديناميات الشخصية	لقد حلل شيلدون السلوك عن طريق مكونات المزاج: **1- المزاج الحشوي**: يتميز صاحب هذا المزاج بحب البساطة، المرح،الأكل،الحياة الاجتماعية..و يسيطر عليه نشاط المعدة والأمعاء. **2- المزاج البدني**: يتصف أصحابه بالنشاط الجسمي، المخاطرة، الصراحة و حب السيطرة و يسيطر عليهم الاندفاع و القوة. **3- المزاج المخي**: من صفات هؤلاء: العزلة والابتعاد عن الغير كما يسيطر عليهم المخ.

يرى شيلدون أن خصائص الشخصية تتوزع توزيعا متصلا على ثلاثة أبعاد.
وقد وضع لكل نمط بدني نمطا مزاجيا ووضح السمات الشخصية لكل نمط مزاجي:

الداخلي التركيبي (الحشوي): ويتسم بالبدانة الحشوي الأساسي اجتماعي ومعتدل المزاج ويحب الاسترخاء والمتعة مع الشراهة في الاكل، ويتميز أيضا بالهدوء الانفعالي و بطء الاستجابة

المتوسط–معتدل– التركيب (العظمي): ويتميز بقوة الجسم و يكون عدواني و لا يهتم بمشاعر الآخرين و يحب المغامرة والنشاط العضلي، كما يميل أيضا إلى السيطرة

الخارجي التركيب (الجلدي) المخي المزاج يكبت انفعالاته ومشاعره كما انه محب للعزلة والسرية والتأمل الذاتي، ولديه عادات سيئة في النوم.

وقام بإجراء مقارنة بين النمط الجسمي للمنحرفين وغير المنحرفين من الأحداث لدى 200 حالة من الأحداث الجانحين، وتوصل الى أن النسبة العالية " معتدلي التركيب " (العضليين) كانوا منحرفين، أي أن الجانحين يختلفون عن غير الجانحين من حيث الأنماط الجسمية والأنماط المزاجية المرتبطة بها.

كما تحدث أنصار النظرية البيولوجية عن اضطرابات الغدد وإفرازاتها وبخاصة الغدة الكظرية و التي تكون سببا في دفع الفرد إلى الفعل الإجرامي، وكذلك الى زيادة صبغي (كروموسوم) الذكورة لدى بعض المجرمين y وعلى سبيل المثال الدراسات التي أجريت على متلازمة XYY47 في الستينيات من القرن الماضي والتي توصلت الى ان أصحاب هذه المتلازمة يميلون الى الجريمة ضد الممتلكات العامة (صالح الفتلاوي،2017).